المسجـــد

المعهد الأول للتعليم عند المسلمين

بقلم الدكتور حسين امين
جامعة بغداد

ظهرت الدعوة الاسلامية ، ولازمها التعليم منذ فجر انبثاقها ، وكانت أولى الآيات القرآنية التي أنزلت على سيدنا محمد (ص) تشير إلى العلم وبعض أدواته قال تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » . وتوالت الآيات القرآنية الكريمة تنزل على الرسول الكريم وكثير منها يحض المسلمين على العلم ويشجعهم على التعليم ، كما كانت تلك الآيات الكريمة ترتفع بقدر العلم وتعلى شأن العلماء وتمجد العقل والمعرفة وتخفض من الجهل وأهله ، وكثيراً ما تقرنه بالعمى وتشبهه بالضلالة والظلمات الحالكة ، واعتبر القرآن الكريم التعليم من وظائف النبي (ص) ، قال عز من قائل : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

وليس من شك أن التعليم من مستلزمات تطور وازدهار المجتمع الانسانى ، وهو فى أبسط مظاهره ليس سوى تكييف الفرد مع ضروريات الحياة ولوازمها فى بيئته ، وإذا كان الإسلام هو النظام الموجه للحياة عند المسلمين بكل مظاهره فقد كان فهمه ودراسته أمراً لابد منه لأفراد الجماعة الإسلامية ، فالتعليم إذن كان من مستلزمات الدعوة الجديدة لتحقيق التربية الصحيحة التى تهدف إليها الدعوة الإسلامية ، ومن الواضح أن الرسول (ص) كان يستهدف بناء أمة جديدة وإنشاء حكومة تضاهى الحكومات القائمة فى عصره فلابد من وجود طبقة متعلمة متنورة تتحمل عبء الدعوة ولها قوة الحجة والمقدرة على الإقناع بالطرق العلمية وتذكر المراجع التاريخية أنه لم يكن بين العرب عدد كبير من الذين يتقنون القراءة والكتابة ، ويذكر القلقشندى

طبقات القراء : إن أول من اقرأ الناس بالكوفة بالقراءة المجمع عليها أبو عبد الرحمن السلمي ، وإن يفتخر مسجد الكوفة بقارىء كبير نال شهرة واسعة وكان ثقة ثبتا ، إنما يفتخر بان وحابه ضمت أحد قراء القرآن الكريم السبعة حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الكوفي التيمي . قال عنه ابن الجزري : وإليه صارت الإمامة في القراءة بعد عاصم والأعمش وكان اماماً حجة ثقة ثبتا رضيا قيما بكتاب الله بصيراً بالفرائض وعارفاً بالعربية حافظاً للحديث عابداً خاشعاً ورعا قانتاً لله عديم النظير . وذكر ابن الجزري أيضاً عن عبد الله العجلي قوله : إن أبا حنيفة قال لحمزة بن حبيب : شيئان غلبتنا عليهما لسنا ننازعك فيهما القرآن والفرائض. وعن سفيان الثوري قوله : غلب حمزة الناس على القرآن والفرائض . وقال عنه أيضاً: ما قرأحمزه حرفاً من كتاب الله إلا بأثر ، وتوفي حمزه بن حبيب الكوفي سنة ١٥٦ هـ (١) .

وكان مسجد الكوفة مركزاً كبيراً وخصباً من مراكز الفقه . ففي هذا المسجد الشريف ، ظهرت بوادر مبادىء الفقه المبني على التجرد واستنباط مفهومه من الكتاب والسنة . في هذا المسجد جلس الإمام علي ابن أبي طالب (ع) يلقن الناس أصول الدين ،وفي هذا المسجد جلس عبد الله ابن مسعود وعروة بن أبي الجعد وشريح بن الحارث وسعيد بن جبير ، وامتازت مدرسة الكوفة الفقهية بكثرة علمائها ووفرة آثارهم وأثرهم الكبير في ازدهار هذا العلم .

وظهرت في مسجد الكوفة مدرسة لتفسير القرآن الكريم ، واشتهر من رجالها سعيد بن جبير الذي قتل سنة ٦٤ هـ . وكان سعيد بن جبير عالماً بالتفسير . وعلي بن حمزة الكسائي انتهت إليه رياسة الإقراء بعد حمزة بن حبيب الكوفي . وذكر أن الحلقة التي تحيط به في مسجد الكوفة أكبر الحلقات وأكثرها طلاباً ، وكان يجمع طلابه ويجلس على كرسي ثم يتلو عليهم

---

(١) الموجع السابق ج ١ ص ٢٦٣

القرآن وهم يسمعون ويضبطون عنه (١) ويحيى بن زيد الفراء الذى عنى بدراسة القرآن وتفسيره ، وأثبت ابن النديم الكتب التى ألفها ، منها : كتاب معانى القرآن ، وكتاب المصادر فى القرآن ، وكتاب الجمع والتثنية فى القرآن. ويعتبر الفراء من نحاة الكوفة وشيوخها فى العربية ، قال ثعلب : لولا الفراء لما كانت اللغة لأنه حصلها وضبطها ، ولولا الفراء لسقطت العربية لأنها كانت تتنازع (٢) . وروى ابن النديم فى فهرسته أن الفراء قال لأصحابه : اجتمعوا حتى أملى عليكم كتاباً فى القرآن. وجعل لهم يوماً. فلما حضروا خرج إليهم. وكان فى المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس فى الصلاة ، فالتفت إليه الفراء فقال له : اقرأ بفاتحة الكتاب فسرها ثم توفى الكتاب كله . فقرأ الرجل وفسر الفراء ، فقال أبو العباس ثعلب : لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب ان أحداً يزيد عليه .

واستمر مسجد الكوفة فى مسيرته التاريخية وهو يحفل بالأدباء والعلماء وطلبة العلم ، يقوم بواجبه الثقافى ، وتشع منه أنوار المعرفة فى شتى فنونها وأبوابها .

وفى المسجد كان المحدثون يعقدون الحلقات لرواية الحديث ، كما كان القضاة يعقدون جلساتهم فى رحباته ، وهكذا أصبح المسجد مكاناً للدرس والتدريس فيه يتعلم الناس القراءة والكتابة ، ويحفظون القرآن الكريم ، ويتفهمون معانى آياته ، ويدرسون اللغة العربية ويسمعون الشعر وروايته ، هذا من ناحية التعليم. أما ما يخص التربية ، أى تربية الفرد المسلم ، فانها كانت بشكل عام قائمة وخاضعة للتعاليم الاسلامية ومنبثقة من وحى القرآن الكريم وروح السنة الشريفة ، ومستمدة أصولها من التقاليد والعادات العربية الأصيلة . فالتربية إطار قوامها العام ، الخلق الحسن والآداب الحميدة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والشهامة والمروءة والعفو عند المقدرة والتعاون وعمل الخير

---

(١) الجزرى / النشر فى القراءات العشر جـ ١ ص ١٧٣

(٢) الأنبارى / نزهة الأدباء / تحقيق الدكتور السامرائى ص ٦٥

والكرم والشجاعة وضبط النفس ومساعدة الفقراء والضعفاء. وكان الرسول محمد ـ عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام ـ وصحابته ـ رضى الله عنهم ـ القدوة الحسنة للجيل العربى المسلم فى صدر التاريخ الإسلامى.

إن المساجد الإسلامية، مدارس صنعت الرجال العظماء وخرجت العلماء الأفذاذ، إنها مدارس كانت تعمل بحق من أجل إعداد جيل قوى يتحمل عبء المسئولية، جيل يؤمن بالله عز وجل وبرسالة الإسلام الخالدة، مدارس هذبت النفوس وصقلت العقول وأحيت الضمائر، فالنفس المؤمنة الطيبة والعقل المفكر النير والضمير الإنسانى الحى، كانت دعائم حياة المسلم وعلائم الشخصية العربية الإسلامية، إنها أمكنة عاش فيها الإمام على بن أبى طالب (ع) رمز الجهاد الخالد ومثال الفداء وبذل النفس ونموذج العلم الشامل الكامل وعنوان الصبر والفضيلة وصفحة الإسلام بالحق والعدالة، أجل انها انها مدارس خرجت حمزة بن عبد المطلب وبلال الحبشى وصهيب الرومى وعمار بن ياسر ومصعب بن عمير وأبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وزيد بن حارثة وطلحة بن عبيد الله وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين، كان لهم أثر كبير، فى وضع الأسس الرصينة من أجل بناء مجتمعنا الإسلامى المجيد.

واستمرت المساجد الإسلامية فى أداء رسالتها التعليمية، وأخذت تعمل على تخريج عناصر علمية طيبة عملت على توسيع وتطوير العلوم وخدمة الإنسانية. تخرج فى تلك المدارس الإمام جعفر الصادق (ع) وكان ملازماً العلم والتعليم فى مسجد المدينة حتى توفى سنة ١٤٨ هـ. ويعتبر الإمام جعفر الصادق (ع) رأس الفقه الإسلامى وعنه أخذ أبو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى ١٥٠ هـ ومالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ هـ، وظهر الشافعى فى مسجد الفسطاط، وتعلم أحمد بن حنبل فى مساجد بغداد، وإن معظم الفقهاء تفقهوا فى المساجد قبل نشأة المدارس.

وفى المساجد الإسلامية تعلم وتبع الكثير من اللغويين والمفكرين والفقهاء والمحدثين والمؤرخين. ومن المساجد التى اشتهرت حلقات العلم وأدت رسالتها

التعليمية على أحسن وجه: المسجد النبوى الشريف، ومسجد البصرة، ومسجد الكوفة، ومسجد الفسطاط، ومسجد القيروان، والمسجد الأموى بدمشق، والمسجد الأقصى، ومسجد الزيتونة، وجامع المنصور ببغداد، ومسجد قرطبة، ومسجد ابن طولون والأزهر الشريف فى القاهرة، ومشهد الإمام على فى النجف الأشرف، إن هذه المساجد الإسلامية أدت رسالتها التعليمية والثقافية خير أداء، وكانت النواة الأولى فى تأسيس المدارس الجامعة فى العالم الإسلامى، ذلك لأن المساجد كان يدرس فيها — كما قلنا — الكثير من العلوم ويفد إليها الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامى؛ فالتدريس فى مسجد المنصور ببغداد كان أمنية كثير من العلماء والفقهاء، ذكر الخطيب البغدادى: أنه لما حج شرب من ماء زمزم وسأل الله أن يحقق له ثلاث حاجات إحداها أن يحقق له إملاء الحديث بجامع المنصور (١) وذكر ياقوت فى معجمه: أن الكسائى كان يجلس فى جامع المنصور ليقرأ اللغة وتتلمذ عليه الفراء وابن السعدان(٢).

وروى أن أعرابياً دخل مسجد البصرة فانتهى إلى حلقة يتذاكرون فيها الأشعار والأخبار، فجلس وهو يستطيب كلامهم، ثم أخذوا فى العروض وتباحثوا فى أوزان الشعر، وظن أنهم يأتمرون به فخرج مسرعاً وهو يقول شعراً يشرح حالته:

قد كان أخذهم فى الشعر يعجبنى ... حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
لما سمعت كلاماً لست أفهمه ... كأنه زجل الغربان والبوم
وليت منفلتاً والله يعصمنى ... من التفحم فى تلك الجراثيم

وروى السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ أن القراءات والطب والميقات بالإضافة إلى دروس التفسير واللغة درست فى الجامع الطولونى (٣).

ومن الجدير بالذكر أنه كانت تلحق بكل مسجد مكتبة ضخمة تضم

---

(١) الخطيب البغدادى / تاريخ بغداد جـ ١ ص ١٨
(٢) ياقوت / معجم الادباء جـ ٤ ص ٢٤٣
(٣) السيوطى — حسن المحاضرة / جـ ٢ ص ١٢٨

عدداً كبيراً من الكتب فى مختلف العلوم والفنون والتى كانت توقف فى العادة على المساجد حتى لاتبددها الأيدى .

فالتعليم تطور فى المساجد الإسلامية تطوراً ملحوظاً منذ أن شيد أول مسجد فى عصر الرسول (ص) حتى القرن الرابع الهجرى ، فقد كان التعليم قاصراً على تعلم القرآن وحفظه ، تطورإلى دراسة العلوم اللغوية ثم إلى دراسة الحديث وروايته ، وبعد ذلك أخذ الفقه وأصول طريقته إلى المسجد ، ثم بدأت المجادلات الكلامية تأخذ مكانها فى رحاب المساجد، وقد نشأ منها علم الكلام والفرق الإسلامية كالمعتزلة والأشعرية وغيرهما من الفرق الكلامية . وفى القرنين الثانى والثالث الهجريين نضجت حركة تدوين العلوم الشرعية وحركةتدوين العلوم اللسانية ،وصار المتعلم لاغنى له عن درس التفسير والقراءات والحديث والفقه والكلام والنحو واللغة والبيان والأدب ، وبرزت فى هذين القرنين حركة الترجمة ونقل علوم القدامى وتراثهم من فلسفة وهندسة وموسيقى وطب وكيمياء . وهذا يؤدى بنا إلى حقيقة حضارية واضحة. ذلك أن طلب العلم فى أول الأمر كان يتناول العلوم الدينية واللغوية ، ثم تناول بعد ذلك غيرها من العلوم الدخيلة ، ولهذا كانت الثقافة الإسلامية مزيجاً من علوم المسلمين والعرب ومن علوم الأقدمين . وقد لعبت المساجد الإسلامية دوراً مهماً فى الحركة العلمية التى سادت القرنين الثانى والثالث الهجريين وكانت طليعة البعث الثقافى وقاعدة التعليم بوجه عام قبل ظهور حركة المدارس فى العالم الإسلامى .

والمساجد الإسلامية التى أدت رسالتها التعليمية بنجاح واردهار ، كانت خير أمكنة انتشرت منها بحوث وتآليف العلماء والفقهاء والأدباء. ومعظم المصادر العربية والإسلامية المخطوطة والمطبوعة كان المسجد مكان كتابتها ونشرها ،فالقرآن الكريم ، كتاب الله العزيز كان الرسول (ص) يملى بكل ما يوحى إليه على أصحابه الطيبين فى مسجده الشريف. وصار الناس يستنسخون القرآن الكريم عندما انتشرت نسخ منه فى المساجد الإسلامية . وفى مسجد المدينة صنف مالك بن أنس كتابه (الموطأ)، وفى مسجد الفسطاط

ألف الشافعي كتابه (الأم)، وفي مسجد البصرة كتب الخليل بن أحمد الفراهيدي كتبه المعروفة والتي من أشهرها كتاب (العين)، وفي المسجد الأقصى بدأ الغزالي في تصنيف كتابه المشهور (إحياء علوم الدين) وأتمه في جامع دمشق، وفي المشهد الغروي أملى الشيخ أبو جعفر الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ هـ كتابه المعروف (اختيار الرجال) وكان بدء إملائه يوم الثلاثاء ٢٦ صفر سنة ٤٥٦هـ(١). كما أملى شيخ الطائفة ـ رحمه الله ـ دروسه التي عرفت بأمالي الشيخ الطوسي على تلامذته في حدود سنة ٤٥٧هـ، وقد أملاها ولده أبو علي (الحسن بن محمد) على تلاميذه في مشهد مولانا أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في سنة ٥٠٩ هـ (٢) وكتب التاريخ والتراجم تزخر بأخبار العلماء والفقهاء والأدباء الذين اتخذوا من المساجد الإسلامية أمكنة ملائمة ـ فيها يتزودون بالعلم والمعارف. وفيها يقيمون ويعيشون، وفيها يدرسون ويتدارسون ويؤلفون ويصنفون ويخلدون آثارهم العلمية والأدبية.

وفي أواخر القرن الرابع الهجري بدأت المدارس الإسلامية في الظهور خاصة في منطقة نيسابور، ثم انتشرت المدارس في العراق وسوريا ومصر وسائر بلاد المسلمين. ومن الجدير بالذكر أن الباحثين يعتقدون أن أول مدرسة في العراق هي المدرسة النظامية التي أسسها نظام الملك سنة ٤٥٩ هـ في الجانب الشرقي من بغداد، ولكن الأخبار التاريخية تشير بصراحة إلى أن حركة التعليم في نظامه المدرسي بدأت عند الشيعة قبل بدايتها عند غيرهم، فقد كانت دار الشريف المرتضى مدرسة لأهل العلم، وكان (رض) يجري على تلامذته رزقاً، فكان للشيخ أبي جعفر الطوسي ـ رحمه الله ـ أيام قراءته عليه كل شهر اثنا عشر ديناراً، وللقاضي ابن البراج كل شهر ثمانية دنانير، وأن الشريف المرتضى كان قد وقف قرية على كاغد الفقهاء (٣). وأن حركة مدرسية منظمة

---

(١) آغا بزرك / الذريعة : ج ١ ص ٣٦٠

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٠٩

الطوسي / أمالي الشيخ الطوسي / المقدمة ص ٤٢، تقديم العلامة محمد صادق بحر العلوم

(٣) سيد علي خان / الدرجات الرفيعة / ص ٤٦٠

ظهرت في النجف الأشرف إثر انتقال شيخ الطائفة أبي جعفر الطوسي ـ رحمه الله ـ الذي عمل على اتخاذ المشهد الشريف مركزاً للتعليم والعناية بتدريس فقه المذهب الجعفري ، ومنذ ذلك الوقت أخذت مدرسة النجف الفقهية في التقدم والازدهار ، حتى أصبحت أوسع وأهم جامعات العالم الدينية، كما أضحت المركز الديني الأول لدراسة الفقه الجعفري والمرجع الديني الرئيسي للشيعة الإمامية في العالم الإسلامي ، ومن يريد الاستزادة من المعلومات في هذا الباب فليراجع الأستاذان الفاضلان العلامة السيد محمد صادق بحر العلوم في مقدمته الوافية لكتاب أمالي الشيخ الطوسي ، وموضوع الدراسة وتاريخها في النجف، ذلك البحث القيم الذي كتبه العلامة السيد محمد بحر العلوم في موسوعة العتبات المقدسة .

وعلى الرغم من انتشار المدارس الإسلامية بشكل واسع وتطورها السريع ، فقد ظل المسجد الإسلامي قاعدة مهمة للتربية والتعليم ، وأخذ يتجاوب مع ما يجد من علوم وآداب تتفق وروح الدين الإسلامي وفيها نفع وخير للإنسانية ، فالأزهر الشريف ، والنجف الأشرف ، والزيتونة في تونس ، والقرويين بفاس ، معاهد إسلامية كانت وستبقى بإذن الله تمثل الوجه الناصع لمثالية الإسلام وتعبر بحق عن أهدافه العلمية ، وتقدم للعالم نتاج الفكر العربي والإسلامي قبساً من الروح والعقيدة والإيمان .

وهكذا تطور المسجد منذ عصر الرسول ـ عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام ـ حتى القرن الرابع الهجري ، فأدى رسالته في نشر العقيدة الإسلامية وبعث روح الحماس في قلوب المجاهدين المؤمنين وتهيئتهم للدفاع عن الوطن الإسلامي ، كما نجح نجاحاً بعيداً في تثقيف العقلية العربية والإسلامية وجعلها تتطور بحيث تتفق وتقدم العلوم ، فالمسجد الإسلامي كان بحق المعهد الأول لنشر العلم في العالم الإسلامي وفيه تخرج الرعيل الأول من كبار علماء المسلمين وفقهائهم الذين كانوا الركيزة الأولى في الحياة العقلية الإسلامية .

الدكتور حسين أمين ـ جامعة بغداد